1430هـ/2009م

التوحيد في فكر الشيخ عبدالقادر الكيلاني (471–561هـ/ 1078–1166م)

م.د. عبدالقادر احمد يونس الزبيدي*

تاريخ التقديم: 2008/1/8 تاريخ القبول: 2008/3/25

التوحيد في فكر عبد القادر الكيلاني

توطئــة:

يتناول البحث عقيدة التوحيد عند الشيخ الكيلاني، والتوحيد عنده ليس مجرد كلمة تطلق لتدل على وحدانية الله عز وجل بل هي عقيدة شاملة تضم جميع شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية، وهي واقع عملي تطبيقي لمنهج الله عز وجل وتحرير للانسان من كل العبوديات والشركيات، فقد حارب الشيخ بعقيدة التوحيد جميع الوثنيات والشركيات التي انتشرت في المجتمع والدولة انتشار النار في الهشيم، فاصبح مجتمعاً خاوياً لاحياة فيه ولا روح وضعفت روح التوحيد والاخلاص في الأعمال والعبادات والنوايا والتوجهات، فهناك من يعبد الحكام والسلاطين والأغنياء لاعتقاده أنهم يرزقونه وهناك من يعبد الدنيا والمال والجاه والشهرة والمكانة الاجتماعية، وهناك زهاد جاهلون يُراؤون الناس يخبرهم الشيخ ان أكثرهم يعبدون الخلق، وهناك من يقدم محبة المال والولد والدنيا وغيرها على محبة الله عز وجل ورسوله (ﷺ) أو من يشكو إلى غير الله عند نزول الأقدار والمصائب به، وهناك المراؤون المنافقون في اعمالهم وعبادتهم، والبعض الاخر يعبد شهواته واهوائه، واخرون يطلبون العلم لغير الله، كأن يطلبونه للمال أو للشهرة، وجميع هؤلاء يتجهون في نواياهم إلى غير الله فهم مشركون بالله، ومعروف ان العلماء قسموا الشرك إلى شرك في الاعتقاد وشرك في العمل؛

---

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

يقول محمد الغزالي: "ولئن كان بعض العلماء يقول: ان الشرك في العمل غير الشرك في الاعتقاد، وان هذا الشرك اصغر وذلك شرك اكبر" والحقيقة ان المسألة اكبر مما يصورونه، وما يصورونه للعامة فالشرك عين حمئة قذرة، إذا انفجرت في قلب وبدأت تسيل قطرات راشحة توشك ان تتحول سيلاً كاسحاً، ويومئذ لا يبقى في القلب ايمان حقا، ويتحول ما يسمونه شرك اصغر إلى عين الشرك الذي يعده الاسلام اكبر الكبائر" [1]، والذي تحدث عنه الشيخ الكيلاني هو الشرك في العمل وقد تطرق إلى الموضوع بعض الباحثين مثل على الصلابي وابو الحسن الندوي ضمن حديثهم عن الشيخ الكيلاني الا انني توسعت فيه واستقصيت حديث الشيخ عنه.

لقد كانت بغداد عاصمة الدولة الاسلامية وقد تعلقت قلوب الناس بها واصبح قصر الخليفة وقصور الوزراء مناط الامال وتعلق الناس بالاسباب والوسائط – من التدابير والشفاعات والاشخاص – تعلقاً شديداً، يعتقدون فيها النفع والضر واصبحت الاسباب ارباباً من دون الله، وتعلقت قلوب الكثير من الناس بامراء الدولة وعمالها لاعتقادهم بأنهم يملكون الارزاق ويسعدون ويشقون ويعطون ويمنعون "وهكذا نشأت وثنية في عاصمة الإسلام، اصنامها الامراء والموظفون وهياكلها دور الحكومة، واتجه الناس من عبادة الله وحده والتوكل عليه والسؤال منه إلى الالتجاء إلى الخلق والاعتماد عليهم واستعطفاهم وتملقهم"[2].

كما ان العصر الذي عاش فيه الشيخ الكيلاني شهد تدهوراً سياسياً وصراعاً بين الخلفاء من جهة وسلاطين السلاجقة الذين كانوا يريدون السيطرة على الخلافة من جهة اخرى كما حدث في عهد الخليفة المسترشد الذي جرت بينه وبين السلطان مسعود عدة وقائع وقد أسر في آخرها سنة (529هـ/ 1134م) وزلزلت بغداد لذلك وانتشرت فتنة في الاقاليم، ثم قتل على يد الباطنية عندما رجع في طريقه إلى بغداد، وقد تألم الكيلاني لاوضاع المسلمين هذه فجمع همته للدعوة

---

(1) عقيدة المسلم، ط4 (الاسكندرية: د. ت) دار الدعوة، 66.
(2) الندوي، ابو الحسن علي الحسيني، رجال الفكر والدعوة في الاسلام، تقديم: مصطفى السباعي، ومصطفى الخن، ط2 (دمشق: 2004) دار ابن كثير، 313/1.

والارشاد واصلاح المجتمع وتقوية العقيدة وتزكية النفوس [1] وقد استطاع بأخلاصه وتوحيده ومواعظه وخطبه وتلوعه لدين الله ان يصرع جميع هذه الشركيات، ويحيى القلوب ويعيد الناس إلى توحيدهم وعقيدتهم الصحيحة في بغداد قلب العالم الإسلامي.

وكان الشيخ دائماً يحذر من الابتداع في الدين ويوصي بالاتباع ويقرن ذلك يوصيته بالتوحيد وضرورة مجانية الشرك حيث يقول "اتبعوا ولا تبتدعوا، واطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا"[2].

حياة الشيخ عبد القادر الكيلاني:

هو الشيخ الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، علم الاولياء، محيي الدين ابو محمد عبد القادر بن ابي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد، ولد في جيلان* سنة سبعين واربعمائة او احدى وسبعين واربعمائة وقدم بغداد شاباً سنة ثمان وثمانين واربعمائة [3] وسمع فيها الحديث من ابي غالب بن الباقلاني، وجعفر السراج، وابي بكر بن سوسن وغيرهم وتفقه على القاضي

(1) ابن كثير، ابو الفدا، البداية والنهاية، ط 2 (بيروت: 1977) مكتبة المعارف، 208/12؛ الندوي، رجال الفكر والدعوة، 311/1، 312، 313.

(2) الكيلاني، عبد القادر، فتوح الغيب، ضبطه ووثقه: محمد سالم بواب (بيروت: 2003) دار الالباب، 10؛ غلاب، محمد، التصوف المقارن (مصر: 1956) مكتبة نهضة مصر، 59.

* جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، وقدم له: عبد الرحمن المرعشلي (بيروت: د. ت) دار احياء التراث العربي، 105/3. ويقال لها ايضاً كيل وكيلان. السمعاني، ابو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور، الانساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط 2 (بيروت: 1980) محمد امين دمج 414/3.

(3) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان، سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط 3 (بيروت: 1986) مؤسسة الرسالة، 439/20، 443؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 252/12.

ابي سعيد المخرمي وابي الخطاب الكلوذاني وابن عقيل وابي الحسن بن الفراء حتى احكم الاصول والفروع والخلاف [1] وصحب الشيخ حماد الدباس الزاهد وهو شيخه في التصوف [2] وقد كان لشيخه المخرمي مدرسة في باب الازج تولاها الشيخ عبد القادر بعد وفاته وفيها بدأ يدرس ويعظ [3] إذ كان يتكلم بثلاثة عشر علماً وكانوا يدرسون عليه التفسير والحديث والفقه وغيرها [4] واشتغل في الوعظ وبرز فيه ثم لازم الرياضة والمجاهدة والسياحة، ثم ان الله اظهره للخلق فوعظ في سنة احدى وعشرين وخمسمائة واظهر الله الحكمة على لسانه كما كان مفتياً [5] وكان له "كلام حسن في التوحيد والصفات والقدر وفي علوم المعرفة موافق للسنة"[6] وانتفع الناس بكلامه ووعظه وانتصر اهل السنة بظهوره واشتهرت احواله واقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم[7] وكان في اول الامر يحضر يحضر في مجلسه رجلان اوثلاثة ومن ثم اصبح يحضر مجلسه سبعون الفاً ويبدو لنا ان هذا الرقم كبيراً ومبالغ فيه الا انه يفهم منه انه كان يحضر مجلسه الكثير من الناس وطلاب العلم، عندما اشتهر ولذلك فقد اسلم على يديه اكثر من

(1) ابن رجب الحنبلي، زين الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد، الذيل على طبقات الحنابلة، وقف على طبعه وصححه: محمد حامد الفقي (مصر: 1952) مطبعة السنة المحمدية، 290/1؛ الذهبي، سير، 443/20، 444.

(2) ابن رجب الحنبلي، الذيل، 291/1.

(3) ابن رجب الحنبلي، الذيل، 291/1؛ الذهبي، سير، 441/20؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 252/12.

(4) الكردي، محمد سعيد، الدر الفريد بأحياء طريقة السيد الجنيد، (دمشق: 1365هـ) دار ابن كثير، 94.

(5) الذهبي، سير، 444/20؛ اليافعي، ابو محمد عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط 2 (بيروت: 1970) مؤسسة الاعلمي، 348/3.

(6) ابن رجب، الذيل، 296/1.

(7) المصدر نفسه، 291/1، 292.

خمسمائة، وتاب على يديه اكثر من مئة الف [1] وتوفي وعمره تسعون سنة ودفن بمدرسته[2].

ومن مصنفاته: كتاب الغنية لطالبي طريق الحق، وكتاب فتوح الغيب [3] وكتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني[4].

يرى الشيخ الكيلاني ان التوحيد هو الاساس الكبير الذي يبنى عليه الوجود "والتوحيد هو قاعدة بناء الوجود مغناطيس حديد قلوب العارفين والروضة الابدية"[5] وهو اساس الاعمال والعبادات وعليه يقوم البناء السليم ولهذا يخاطب الناس ان يخلصوا في اعمالهم وعباداتهم ويبتعدوا عن النفاق والرياء فيقول: "من اظهر اعماله للخلق فلا عمل له، الاعمال تكون في الخلوات، لا تظهر في الجلوات سوى الفرائض التي لابد من اظهارها، وقد سبق تفريطك في احكامك للاساس، ما ينفعك احكامك للبناء الذي فوقه، إذا تغير البناء والاساس محكم قدرت ان تجبر البناء، اساس الاعمال التوحيد والاخلاص، فمن لا توحيد له ولا اخلاص له، لا عمل له، احكم اساس عملك بالتوحيد والاخلاص، ثم ابن الاعمال بحول الله عز وجل وقوته لا بحولك وقوتك، يد التوحيد هي البانية لايد الشرك والنفاق، الموحد هو الذي يرتفع قدر عمله اما المنافق فلا، اللهم باعد بيننا وبين النفاق في جميع احوالنا" [6].

---

(1) الذهبي، سير، 447/20.

(2) ابن كثير، البداية النهاية، 252/12.

(3) ابن رجب، الذيل، 296/1؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه وطبعه: محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكة الكليسي(اسطنبول: د. ت) مكتبة المثنى، 1240/2.

(4) الكيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني (مصر: د. ت) مكتبة الايمان؛ الزركلي، خير الدين، الاعلام، ط3 (بيروت: 1969) 172/4.

(5) اليافعي، مرآة الجنان، 360/3.

(6) الكيلاني: الفتح الرباني، 33.

وينصح ابنه عبد الرزاق قائلاً: "وعليك بالاخلاص وهو نسيان رؤية الخلق ودوام رؤية الخالق ولا تتهم الله في الاسباب واستكن إليه في جميع الاحوال ولا تضع حوائجك اتكالاً بأحد لما بينك وبينه من القرابة والمودة والصداقة"[(1)].

ولخطورة الرياء والعجب على دين العبد فقد حذر منه الشيخ كثيراً: "فينبغي على كل عابد اعرف ان يحذر من العجب والغرور والرياء ورؤية الناس في كل احواله لان النفس خبيثة وهي منشأ الاهواء واللذات والشهوات المردية والحائلة بين العبد وبره"[(2)] ثم استشهد بالقران على تحريم الرياء في قوله تعالى: ((الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ والَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)) [(3)] وبوصفه عز وجل للمنافقين: ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلى هَؤُلاء وَلاَ إِلى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً))[(4)].

وينصح الناس بمجاهدة شياطينهم بالاخلاص في ذكر كلمة التوحيد لابمجرد ذكرها باللسان فلا ينفع ذكرها باللسان مع وجود الكثير من الالهة في القلب، مما يدل على تشديده على الاخلاص فيقول: "اضنوا شياطينكم بالاخلاص في قول لا اله الا الله لا بمجرد اللفظ، التوحيد يحرق شياطين الانس والجن لانه نار للشياطين ونور الموحدين، كيف تقول لا اله الا الله وفي قلبك كم إله؟ كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب،

---

(1) الفيوضات الربانية، ترجمة وترتيب: نور الدين باسم بن علي بن عبد الملك بن السلطان محمد بن الامام محي الدين آل المدرس الحسيني (بغداد: 1407هـ) دار الشؤون الثقافية العامة، 40.

(2) الكيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق (دمشق: د. ت) دار الالباب، 67/2؛ الصلابي، علي محمد، الدولة الزنكية، ط1 (بيروت: 2007) دار المعرفة، 376.

(3) الماعون: الاية 4-7.

(4) النساء: الاية 142-143.

لا ينفعك طهارة القالب مع نجاسة القلب، الموحد يضني شيطانه، والمشرك يضنيه شيطانه"[1].

ويخبر المستمعين ان من يعبد صنم الرياء حرام عليه ان يحصل على قرب الله "وينصحهم بان يعرضوا عن الخلق ويعرضوا عن الناس ويتخلصوا من شرك الرياء الذي يبعدهم عن قرب الله فلا قرب في الدنيا والاخرة الا بعد استقرار التوحيد في القلب والاعتقاد بأن النفع والضرر والعطاء والمنع بيده عز وجل وحده لا عند غيره من الانداد"[2].

كما كانت بعض خطبه ومواعظه موجهة إلى الناس، إلى من يشرك بالله عز وجل ويعتمد على الملوك والوزراء والامراء والاغنياء كأنهم هم الرازقين، ويعظمهم ويأوي اليهم ومعروف ان الرسول (ﷺ) قال: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ" [3] فقام بتوجيه ضربة قاصمة لهؤلاء الناس، وللسلاطين ولولاة أمور الدولة، وفي ذلك يقول الندوي: "وصدع الشيخ بالتوحيد وتحقير الخلق من الملوك والوزراء والامراء والاغنياء وبين ضعفهم وعجزهم، وانهم لا يملكون شيئاً ويصور عجزهم وضعفهم تصويراً بليغاً دقيقاً، ويضرب لذلك الامثا ل"[4] يقول في حديث: "اجعل الخليقة اجمع كرجل كتفه سلطان عظيم ملكه، شديد امره، مهولة صولته وسطوته ثم جعل الغل في رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الارز على شاطئ النهر ... ثم جلس السلطان على كرسي عظيم قدره، عالية سماؤه، بعيد مرامه ووصوله، وترك إلى جنبه احمالاً من السهام والرماح والنبل وانواع السلاح

---

(1) الكيلاني، الفتح الرباني، 120.

(2) المصدر نفسه، 123.

(3) وجاء بلفظ اخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ". ينظر: ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، عني بتصحيحه: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: 2005) دار الكتب العلمية، 68/6.

(4) رجال الفكر والدعوة، 313/1، 314.

والقسي وما يبلغ قدرها غيره فجعل يرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح، فهل يحسن لمن رأى ذلك ان يترك النظر إلى السلطان، ويترك الخوف منه والرجاء له ويخاف من المصلوب ويرجو منه؟ أليس من فعل ذلك يسمى في قضية العقل عديم العقل ومجنوناً وبهيمة غير انسان" [1] ويقول ايضاً "لا تعتمد على سلطان بلدك ولا على نفسك ولا على احد من الخلق وعلى اموالك وبيعك وشرائك لانك إذا اعتمدت على ذلك فسوف يغلق الله بابه عنك وكل من تعتمد عليه فهو إلهك"[2].

وقد اشار ابن تيمية رحمه الله إلى نظير ذلك فذكر "ان العبد محتاج إلى الرزق فاذا طلبه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه اما إذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقير إليه" [3] كما ان الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب مثلما الغنى غنى النفس "وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الارض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الاموال والولايات ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم "والتحقيق ان كليهما فيه عبودية للاخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله" [4] "ولن يستطيع القلب ان يستغني عن المخلوقات الا عندما يكون الله عز وجل هو مولاه ويفرده بالعبادة والاستعانة والتوكل ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه فكلما قوي اخلاص الدين لله كملت العبودية والغنى عن المخلوقات" [5].

ولم يكن الشيخ الكيلاني يعظم السلاطين والامراء فقد ورد عنه انه "إذا جاءه خليفة أو وزير يدخل الدار ثم يخرج، حتى لا يقوم له اعزازاً للطريق في أعين

---

(1) الكيلاني، فتوح الغيب، 33؛ الندوي، رجال الفكر والدعوة، 314/1.
(2) الكيلاني، الفتح الرباني، 72-73.
(3) ابن تيمية، تقي الدين احمد بن عبد الحليم، العبودية، ط 3 (بيروت: 1392هـ) المكتب الاسلامي، 90.
(4) المصدر نفسه، 97، 101.
(5) المصدر نفسه، 114.

الفقراء"[1] كما قال الشعراني "وكان لايقوم قط لاحد من العظماء ولا اعيان الدولة ولا ألم قط بباب وزير ولا سلطان"[2] وكان ينتقد الحكام والناس الذين يعظمونهم" قد صارت الملوك لكثير من الناس آلهة، قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوى آلهة، ويحكم جعلتم الفرع اصلاً، المرزوق رازقاً، المملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قوياً، الميت حياً، لا كرامة لكم لا نتبعكم ولا نتخذ مذهبكم بل نكون ناحية منكم على تل السلامة على تل السنة وترك البدعة على تل التوحيد والاخلاص وترك الرياء والنفاق ورؤية الخلق بعين العجز والضعف والقهر، إذا عظمت جبابرة الدنيا وفراعنتها وملوكها واغنياءها ونسيت الله عز وجل ولم تعظمه فحكمك حكم من عبد الاصنام تصير من عظمت صنمك"[3].

ويحث الناس على ترك هذه الاصنام وعبادة خالق الاصنام فإنها عندئذ تذل له ويوضح لهم حقيقة الامر فكلما عظم الانسان الله عز وجل كانت منزلته كبيرة عند الله عز وجل والناس وصغرت في عينه هذه الاصنام وهانت وتلاشت "فعندما يتقرب العبد إلى الله يتقرب الخلق منه بل على قدر تعظيمك له يعظمك خلقه وعلى قدر خوفك وحبك له له يخافك ويحبك خلقه وعلى قدر احترامك لاوامره ونواهيه يحترمك خلقه وعلى قدر خدمتك له يخدمك خلقه"[4].

وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ اوامر السلاطين دون تحرز ويدعوهم إلى خدمة الله جل في علاه والاعلاض عن خدمة السلاطين ورجال الدولة بقصد الحصول على متاع الدنيا، فالدنيا وما منها بيد الله وهو المعطي والمانع ثم انه قد قسم لكل انسان نصيبه فلا حاجة لكي يتوجه الانسان إلى الخلق في ذلك فلن يعطوه اكثر مما قسمه له الله [5] وهي دعوة في غاية الاهمية تحرر

---

(1) الشعراني، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى،(مصر: د. ت) 111/1.

(2) الشعراني، الطبقات الكبرى، 110/1.

(3) الكيلاني، الفتح الرباني، 234؛ الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عاد القدس، ط3 (الاردن: 2003) دار الفرقان، 201.

(4) الكيلاني، الفتح الرباني، 234.

(5) المصدر نفسه، 37؛ الصلابي، الدولة الزنكية، 413.

الانسان من الشرك والعبودية لغير الله وتحفظ للانسان كرامته ونفسه ولا شك ان الله عز وجل غيور لا يرضى لاحد ان يهدر كرامته ونفسه من اجل ذلك.

ثم يوجه خطابه إلى من يتواضع للاغنياء إلى اتباع القاردونية ويذل لهم ويعد ذلك شركاً بالله "اسمعوا يا منافقون هذا لمن ترعرع للاغنياء فكيف من صلى وصام وحج لهم وقبل اعتابهم، يا مشركون بالله عز وجل ما عندكم منه ولا من رسوله خبر، اسلموا وتوبوا واخلصوا في التوبة حتى يبدأ ايمانك ويترعرع ايقانكم وينشو توحيدكم فتصعد فروعه إلى العرش"[(1)].

فهو في ذلك يحارب اتباع قارون محاربة لاهوادة فيها وينبأهم بأنهم مشركون بالله ويضع الدواء لمرض استشرى في المجتمع فأصبح عضالاً، ومن اقواله في ترك الخلق "الخلق حجابك عن نفسك ونفسك حجابك عن ربك وما دمت ترى الخلق لاترى الخالق وما دمت ترى نفسك لاترى ربك"[(2)].

وفي موضوع المحبة وهو الموضوع الذي يعول عليه الصوفية كثيراً بل ان مذهبهم قائم على المحبة الالهية وهم دائماً يذكرون ماجاء به القران الكريم: ((قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)) [(3)] وما قاله الرسول (ﷺ): "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" [(4)] وكذلك ما قاله (ﷺ) عندما قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ

---

(1) الكيلاني، الفتح الرباني، 98.

(2) الشعراني، الطبقات الكبرى، 110/1؛ الذهبي، سير، 450/20؛ التاذفي، محمد بن يحيى، قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر (مصر: 1356هـ) المطبعة المحمدية، 73.

(3) التوبة: الاية، 24.

(4) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 56/1–57.

حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): الْآنَ يَا عُمَرُ"[1].

وهذه الشواهد الدينية كانت دستور عملهم في المحبة التي طالما سطروها في ثنايا كتبهم حيث ربطوا ارواحهم وقلوبهم بالله عز وجل، ولكن الوضع الاجتماعي في بغداد في زمن الكيلاني كان بعيداً عن هذا الحب، وهو نادر الوجود وقد اشار الندوي إلى ذلك "وكان ممن يأتيه ويحضر مجالسه رجال تعلّقت قلوبهم بغير الله ثم حيل بينهم وبينه فهم في قلق وحسرة، ويسليهم الشيخ ويذكر الحكمة في ذلك، ويشرح غيرة الله سبحانه وتعالى، وحرصه على ان يكون خالصاً له، ولا ينازع حبه ولا يزاحم حقه حق" [2] "ما اكثر ما تقول: كل من احبه لا تدوم محبتي اياه، فيحال بيننا، اما بالغيبة او بالموت، او بالعداوة وانواع الاهوال بالتلف، والفوات من اليد، فيقال لك اما تعلم يا محبوب الحق المعني به، المنظور اليه، المغار له وعليه، الم تعلم ان الله عز وجل غيور، خلقك له وتروم ان تكون لغيره؟"[3] اما سمعت قوله عز وجل: ((يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)) [4] وقوله: ((وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ))[5]، اما سمعت قول الرسول (ﷺ): (اذا احب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اقتناه) قيل يا رسول الله وما اقتناه؟ قال: (لم يذر له مالاً ولا ولداً)[6].

"وذلك لانه إذا كان له مال وولد احبهما، فتنقص وتتجزأ، فتصير مشتركة بين الله عز وجل وبين غيره، والله تعالى لايقبل الشريك، وهو غيور، قاهر فوق

---

(1) المصدر نفسه، 449/11.

(2) رجال الفكر والدعوة، 317/1.

(3) الكيلاني، فتوح الغيب، 56؛ الندوي، رجال الفكر والدعوة، 317/1.

(4) المائدة: جزء من الاية 54.

(5) الذاريات: الاية 56.

(6) ابو بكر الشيباني، احمد بن عمرو بن الضحاك، الاحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل احمد الجوابرة، ط1 (الرياض: 1991) دار التقوى، 445/4؛ الديلمي، ابو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه، الفردوس بمأثور الخطاب، ط 1 (بيروت: 1986) دار الكتب العلمية، 250/1؛ الندوي، رجال الفكر والدعوة، 317/1.

كل شيء، غالب لكل شيء فيهلك شريكه ويعدمه ليخلص قلب عبده له من غير شريك فيتحقق حينئذ قوله عز وجل (يحبهم ويحبونه) حتى إذا تنظف القلب من الشركاء والانداد من الاهل والمال والولد، واللذات والشهوات، وطلب الولايات والرياسات، والكرامات والحالات، والمنازل والمقامات، والجنات والدرجات، والقربات والزلفات، فلا يبقى للقلب ارادة ولا امنية يصير كالإناء المنثلم الذي لايثبت فيه مائع لانه انكسر بفعل الله وغيرته" [1] "فضربت حوله سرادقات العظمة والجبروت والهيبة وحفرت من دونه خنادق الكبرياء والسطوة، فلم يخلص إلى القلب ارادة شيء من الاشياء فحينئذ لا يضر القلب الاسباب من المال والولد والاهل والاصحاب والكرامات والحكم والعلم والعبادات، فأن جميع ذلك يكون خارج القلب، فلا يغار الله عز وجل، بل يكون جميع ذلك كرامة من الله لعبده، ولطفاً به ونعمة ورزقاً ومنفعة للواردين عليه"[2].

ولهذا عندما سئل عن الدنيا قال "اخرجها من قلبك إلى يدك فإنها لا تضرك"[3] وكان يقول: "ما ولد لي قط مولود الا اخذته على يدي وقلت هذا ميت فاخرجه من قلبي اول ما يولد" [4] ثم هاهو يقول: "فهو يرى ان الموحد عند قوة توحيده لا يبقى له اب ولا ام ولا اهل ولا صديق ولا عدو ولا مال ولا جاه ولا يساكن شيء ابداً ما عدا الحق عز وجل ومننه" [5] "ومن احب الله لا يرى غير الله"[6].

---

(1) الكيلاني، فتوح الغيب، 56.
(2) المصدر نفسه، 56، 57.
(3) الشعراني، الطبقات الكبرى، 110/1؛ التاذفي، قلائد الجواهر، 71.
(4) الشعراني، الطبقات الكبرى، 111/1.
(5) الكيلاني: الفتح الرباني، 141؛ الكيلاني، محمد سيف الدين، الدرر السنية في المواعظ الكيلانية (اسطنبول: 1302هـ) مكتبة المثنى، 27.
(6) اليافعي، نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية اصحاب المقامات العالية الملقب كفاية المعتقد ونكاية المنتقد، تحقيق وتصحيح: ابراهيم عطوة عوض، ط 1 (مصر: 1961) مصطفى البابي الحلبي، 386.

ومن المفيد هنا ان نشير إلى ماذكره ابن القيم في هذا الصدد "لما سأل ابراهيم (عليه السلام) الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة، غار الحبيب على خليله ان يكون في قلبه موضع لغيره فأمره بذبحه وكان الامر في المنام ليكون المأمور به اعظم ابتلاء وامتحانا ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل إلى الامتثال، وقدم محبة ربه على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح، وفدي الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما امر بشيء ثم ابطله رأساً بل لابد ان يبقى بعضه او بدله"[1].

ولا يعني ذلك – كما اسلفنا – عدم محبة اهله وولده وغير ذلك فهذه هي المحبة الطبيعة وفيها قال ابن القيم ايضاً: "المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لاتذم الا إذا الهت عن ذكر الله وشغلت محبته [2]، كما قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ)) [3] وقال ((رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ))[4].

ويقول الشيخ محمد الغزالي (اذا رأيت المرء يحب غير الله اكثر مما يحب الله، ويخاف العبد اكثر مما يخاف الرب، ويتعلق قلبه بالناس اكثر مما يتعلق برب الناس، ويصدر عمله ابتغاء رضاهم اكثر مما يتطلب ثواب الاخرة، واذا نزلت به نكبة كان تفكيره في فلان قبل تفكيره بالله، واذا اصابه خير كان حمده لفلان اسبق من شكره لله، فاعلم ان هذا الشخص قد اشرك)[5].

ولم يبق التوحيد للكيلاني صديقا ولا عدوا، فالمعادي له والمحب له سواء وذلك لانه لا يرى ضراً ولا نفعاً لاحد الا بأذن الله "المعادي لي والمحب لي عندي

---

(1) الداء والدواء او الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط6 (دمشق: 2003) دار ابن كثير، 325.

(2) الداء والدواء، 324.

(3) المنافقون: جزء من الاية، 9.

(4) النور: جزء من الاية، 37.

(5) عقيدة المسلم، 65، 66.

سواء، مابقي على وجه الارض لي صديق ولا عدو هذا فيما يلي صحة التوحيد ورؤية الخلق بعين العجز واما من اتقى الله فهو صديقي ومن عصاه فهو عدوي، ذلك صديق ايماني وهذا عدو له"[1] بيد انه يرى ان العناية الالهية قد ساقته لفائدة الناس وهدايتها وما ترقى إلى هذا المكان الا عندما ادرك يقيناً ان لافائدة ولا ضر من احد إلا بإذنه تعالى وهذا يعود إلى عقيدة التوحيد العظيمة "وقد ادرك مهمته التي حباها له الله وهي احياء القلوب وارجاع الناس إلى عقيدة التوحيد الصحيح وقد شبه التوحيد بالسيف الذي قطع كل شيء وكل علاقة بقلبه ما سوى الله عز وجل حتى اصبح مدح الناس وذمهم واقبالهم وادبارهم سواء فكثيراً ان ذلك من الله عز وجل انه مع الناس لله اخذاً وعطاءاً واقبالاً حتى انه يتمنى ان يدخل قبر كل انسان ويجيب عنه الملكان منكراً ونكيراً رحمة وشفقة على الناس"[2].

ويتحدث الشيخ الكيلاني عن التوحيد ايضاً في موضوع الشكوى عند نزول الاقدار والبلايا والمصائب، وينصح من تقع عليه ان لا يشكو إلى الخلق لان ذلك شرك بالله بل عليه ان يتوجه في شكواه إلى ربه عز وجل فالخلق لا يستطيعون ان يفيدوه بشيء او يرفعوا عنه ضره بل سيقع في مقت الله وغضبه وحجابه عنه وهذا عين الجهل - كما يصفه الكيلاني - ان تطلب من الناس ما لايستطيعون ونترك الله عز وجل القادر على رفع ضرك[3].

كما ان الاعتراض على الحق سبحانه وتعالى عند نزول الاقدار هو موت الدين موت التوحيد، موت التوكل والاخلاص، والقلب المؤمن لا يعرف لم وكيف[4] ويوجه نصيحته إلى مستمعيه بإن يتوجهوا إلى الله لا إلى أي جهة اخرى بل ان يتعاموا عن غيره "تعام عن الجهات كلها ولا تعضض على شيء منها فإنك ما دمت تنظر اليها فباب فضل الله عنك مسدود فسد الجهات كلها بتوحيدك وامحها بيقينك ثم بفنائك ثم بمحوك ثم بعلمك وحينئذ تفتح من عيون قلبك جهة

---

(1) الكيلاني، الفتح الرباني، 233.
(2) المصدر نفسه، 281؛ الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 196، 197.
(3) الكيلاني، الفتح الرباني، 91.
(4) المصدر نفسه، 9.

الجهات وهي جهة فضل الله الكريم فتراها بعين رأسك فلا تجد ذلك فقراً ولا غنى"[1].

ان من يستطيع ان يسد جميع الجهات ويتوجه إلى جهة الله عز وجل بقلبه وروحه وعقله فإن الله ولا شك سيلقي في قلبه الاطمئنان والسكينه والقوة على مواجهة جميع اهوال الدنيا ومصائبها حتى انها لتهون امام رحمة الله سبحانه وتعالى وهو القائل (ادعوني استجب لكم) [2] ويحصل الانسان بذلك على الصحة النفسية والتوازن والاستقرار العقلي ويقهر القلق المحطم للاعصاب، وعلى العكس من ذلك إذا ما اقبل الانسان على أي جهة من الجهات هيهات هيهات ان يجد لدائه دواءاً شافياً، ولن يصاب الا بالحيرة والاضطراب.

كما ان الاعتراف بالنعم يجعل الانسان يغرق بالتوحيد وفي هذا يقول "لا فلاح لك حتى تعترف بنعمه، والنعم تغرقك في توحيده ثم تفنى في توحيده عن رؤية غيره" [3] ويوضح ان الله عز وجل لا يستجيب لدعاء الانسان دائماً لكي لايغتر بدعائه وذلك شفقة على العبد ان لا يغلب عليه الرجاء والغرور ويتعرض للمكر به ويقصر في عبادته وادبه مع ربه فيهلك فالمطلوب من الانسان ان لا يركن لغير ربه عز وجل[4].

أي ان الانسان سوف يغتر بنفسه ودعائه ويركن إليه وتكون المسألة آلية بحتة لا يعبأ لها الانسان نفسه ولكن الله عز وجل يريد من الانسان ان يكون مرتبطاً به دائماً متوجهاً إليه لا إلى غيره لحوحاً في دعائه لا ينقطع رجاؤه منه ولو استجيب لكل دعاء لا نقطع الرجاء.

ويوجه كلامه إلى من يريد الحصول على احوال الصالحين وهو مشرك بالله وغير زاهد في حين ان الامر كله يقوم على التوحيد والزهد فيقول "ما دام حب

---

(1) الشعراني، الطبقات الكبرى، 114/1.

(2) غافر: جزء من الاية، 60.

(3) الكيلاني، الفتح الرباني، 237.

(4) الشعراني، الطبقات الكبرى، 113/1.

الدنيا في قلبك لا ترى شيئاً من احوال الصالحين، ما دمت مكديا من الخلق مشركاً بهم لا تنفتح عينا قلبك، لا كلام حتى تزهد في الدنيا والخلق، كن مجتهداً ترى مالا يراه غيرك تخرق لك العادة، إذا تركت ماهو في حسابك جاءك ماهو في غير حسابك، إذا اعتمدت على الحق عز وجل واتقيته خلوة وجلوة، رزقك من حيث لا تحتسب، اترك انت يعطيك هو، ازهد انت يرغبك هو، في البداية الترك وفي الاخرة الاخذ"[1] ولهذا نجده يقول "علائق زهد الدنيا حجاب يمنع من الوصول إلى الملكوت الاعلى"[2] فهو يريد ان يجعل الزهد نقياً صافياً بلا ادنى شائبة ممكن ان تحجب الانسان عن الله فالله عز وجل يريد الاخلاص والتجرد فيه، وهذا كله في اطار فهمه للزهد والذي يعني انه تملك الاشياء ولا تملكك الاشياء بتأكيده على ان الانسان يجب ان يرضى على ما قسمه الله له من الدنيا وان يخرجها من قلبه إلى يده - كما اشرنا إلى ذلك من قبل - وينصح بترك قيد الدنيا والاخرة لانهما يحجبان عن الله "اعرض عن الدنيا واقبل على الاخرة ثم اعرض عن الاخرة واقبل على الحق عز وجل فانهما يتبعانك" [3] وهو كذلك فالاعراض عن الدنيا وعدم الاغترار بها ثم الاقبال على الاخرة والعمل من اجلها ومع ذلك يجب ان لا تكون همة الانسان وهدفه النهائي ذلك بل الهدف الاسمى الذي ينبغي ان يكون لكل انسان هو وجه الله ورضاه عز وجل فمن يكن الله معه يكون معه كل شيء ومن يخسر الله فقد خسر كل شيء.

ومن خطبه المؤثرة والمباشرة التي يوضح فيها حقيقة الوثنية التي حاربها واوضح فيها حقيقة الجهل الموجود عند الناس قوله "يا عباد الدنيا وياعباد الاخرة انتم جهال بالله عز وجل وبدنياه وآخرته، انتم حيطان، انت صنمك الدنيا، وانت

(1) الكيلاني، الفتح الرباني، 101.
(2) الشطنوفي، نور الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن جرير، بهجة الاسرار ومعدن الانوار (مصر: 1330هـ) شركة التمدن الصناعية، 50.
(3) الشطنوفي، بهجة الاسرار، 55.

صنمك الاخرة، وانت صنمك الخلق، وانت صنمك الشهوات واللذات، وانت صنمك الحمد والثناء وقبول الخلق لك، كل ما سوى الله عز وجل صنم"[1].

وقد انتقد الكيلاني اولئك الذين تشبهوا بالتصوف ولم يفهموا معناه لان التصوف صدق وصفاء[2] وتصفية القلب عن ما سوى الله بتوحيده والزهدة بالدنيا واخراج جميع المعبودات من القلب فيقول: "التصوف مشتق من الصفاء يامن لبس الصوف، الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه عز وجل وهذا شيء لايجيء بتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الاكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الاصابع بالتسبيح والتهليل، وانما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا واخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل"[3].

ويوجه نقده اللاذع للزهاد الذين لم يعرفوا حقيقة الزهد ويحذرهم من الانعزال بدون علم ويحثهم على مصاحبة العلماء العاملين وان لا يكونوا عبيداً للخلق يطمعون ان ينالوا عندهم المكانة والشهرة والتقديس والجاه "يا اصحاب الصوامع والزوايا تعالوا ذوقوا كلامي ولو حرفاً واحداً، اصحبوني يوماً او اسبوعاً لعلكم تتعلمون شيئاً ينفعكم، ويحكم الاكثر منكم هوس في هوس، تعبدون الخلق في صوامعكم، هذا الامر لا يجيء بمجرد التعود في الخلوات مع الجهل، ويلك امشِ في طلب العلم والعلماء العمال حتى لا يبقى مشياً"[4].

ويقول في موضع آخر ان اكثر المتزهدين عبيد للخلق ويبدو ان رؤية الشيخ هذه هي جزء من الواقع الاجتماعي الذي كان يعاني منه المجتمع الإسلامي في كل شؤونه "الاكثر من المتزهدين والمتعبدين عبيد للخلق مشركون بهم، لا تتكلموا على الأسباب وتشركوا بها وتعتمدوا عليها فيغضب عليكم الحق عز وجل الذي هو مسبب الاسباب الخالق لها المتصرف فيها ... إذا كان هو الفاعل على

---

(1) الكيلاني، الفتح الرباني، 223.
(2) الصلابي، الدولة الزنكية، 417.
(3) الكيلاني، الفتح الرباني، 89.
(4) المصدر نفسه، 203، 204.

الحقيقة فلم لا ترجعون إليه في جميع اموركم وتتركون حوائجكم وتلزمون التوحيد له في جميع احوالكم"[1].

ويحذر من الشرك في الاسباب ويصف صاحبه بالجهل فيقول: "لا تخلط الجد بالهزل، فإنك ما تمكن قلبك مع الخلق كيف يجتمع مع الخالق وانت مشرك بالسبب؟ كيف تكون مع المسبب، كيف يجتمع ظاهر مع باطن، ما تعقل وما لا تعقل، ما عند الخلق وما عند الخالق، ما اجهل من نسي المسبب واشتغل بالسبب، وقف مع الثاني وترك الاول نسي الباقي وفرح بالفاني" [2] فهو اذن يحذر من ان يعتمد الانسان على الاسباب بل يأخذها ولا يعتمد عليها ولكن يعتمد على الله وقد قال رسول الله (ﷺ) للرجل الذي ترك ناقته ولم يربطها معتمداً على الله (اعقلها وتوكل)[3].

وتحدث الشيخ عن نوع آخر من الشرك وهو الشرك بالشهوات والاهواء والارادات او عبادة الهوى والشهوات ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ))[4] فيحذر الناس منها فيقول: "احفظ ابداً أمره وانته ابداً عن نهيه وسلم ابداً لمقدوره، ولا تشركه بشيء من خلقه، فإرادتك وهواك وشهواتك كلها خلقه، فلا ترد زيادة ولا تهوى ولا تشته كيلا تكون مشركاً قال الله تعالى: ((فمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)) [5] ليس الشرك عبادة الاصنام فحسب بل هو متابعتك هواك وان تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا والاخرة وما فيهما فما سواه عز وجل غيره، فإذا ركنت إلى غيره فقد اشركت به عز وجل غيره، فاحذر ولا تركن"[6].

---

(1) المصدر نفسه، 202.

(2) المصدر نفسه، 30؛ الكيلاني، الدرر السنية، 20-21.

(3) العجلوني، اسماعيل بن محمد، كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس، (مصر: 1351هـ) مكتبة القدسي، 144/1.

(4) الجاثية: جزء من الاية، 32.

(5) الكهف: جزء من الاية، 110.

(6) الكيلاني، فتوح الغيب، 16-17؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1 (بيروت: 2000) دار الكتب العلمية، مج 6، ج261/10؛ شرح كلمات الشيخ عبد القادر الكيلاني من فتوح الغيب، تحقيق: اياد عبد اللطيف ابراهيم (بغداد، 1987)

ويقول "الاعراض عن شهوات النفس تجريد بل توحيد" [1] ويخاطب الذي يدعي احوال الصالحين وهو غارق في شرك الهوى والشهوات ولذلك فأنه لا يصل إلى الملك الاعلى فيقول: "لاتدع حالة القوم يا صاحب الهوى انت تعبد الهوى وهم عبيد المولى، انت رغبتك في الدنيا ورغبة القوم في العقبى، انت ترى الدنيا وهم يرون رب الارض والسماء، وانت انسك بالخلق وانس القوم بالحق، انت قلبك متعلق بمن في الارض وقلوب القوم برب العرش، انت يصطادك من ترى وهم لا يرون من ترى، بل يرون خالق الاشياء وما يرى، فأمِن القوم به وحصلت لهم النجاة وبقيت انت مرتهناً بما تشتهي من الدنيا وتهوى، فنوا عن الخلق والهوى والارادة والمنى فوصلوا إلى الملك الاعلى" [2] "يا عبد نفسه وهواه وطبعه وشيطانه ودنياه لا قدر لك عند الله وعند عبادة الصالحين"[3].

ثم ان الشرك بالله عز وجل قيد وغل وهوان وعذاب وموت للقلب "المؤمن حي والكافر ميت، الموحد حي والمشرك ميت" [4] ويحث الخلق على التوحيد ليخلصوا من ثقل الشرك والخوف فالقوم لا يخافون من الخلق ومن اعدائهم لانهم قد تحققوا انه لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع ولا محيي ولا مميت سوى الله عز وجل وهم في حفظ الله ورعايته وفي راحة من ثقل الشرك وفي اصطفاء واجتباء وانس بالله عز وجل متلذذين بلطفه ورحمته ومناجاته[5].

مكتبة المثنى، ص55؛ الرواي، عمر احمد، طب القلوب عند الامامين الجليلين ابن تيمية الحراني وابن قيم الجوزية، ط 2 (بيروت، 2006) دار الكتب العلمية، 190. مع اختلاف بسيط في اللفظ عند ابن تيمية والرواي.

(1) التاذفي، قلائد الجواهر، 61.

(2) الكيلاني، فتوح الغيب، 29.

(3) الكيلاني، الفتح الرباني، 130.

(4) المصدر نفسه، 12؛ الكيلاني، الدرر السنية، 18.

(5) الكيلاني، الفتح الرباني، 212، 213.

وكان يدعو فيقول: "اللهم يا خالق الخلق يا مسبب الاسباب خلصنا من قيد الشرك بخلقك واسبابك"[1] لان الانسان مادام مع غير الله فهو في غم وقلق وحزن وثقل وشرك وعندما يخرج الخلق من قلبه ويتصل بربه فعند ذلك سوف يرى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الالطاف والرحمة والانس والمحبة والكرامة وغنى القلب ولذته[2].

وينصح الدعاة والناس الذين يريدون ان يدعوا الناس إلى الله ويهدوهم ان لايدعوهم الا بعد التخلص من خبث الشرك مع الاعتقاد بعدم ضرهم بل الضار النافع هو الله "اهجر الخلق، ما دمت تراهم في الضر فإذا صح توحيدك وخرج خبث الشرك من قلبك، عد اليهم وخالطهم وانفعهم بما عندك من العلم، دلهم على باب ربهم عز وجل، موت الخواص موت عن الخلق بالجملة موت عن الارادة والاختيار من صحت له هذه الموتة صحت له الحياة الابدية مع ربه عز وجل تصير موتته الظاهرة سكتة لحظة غشية، لحظة غيبة، لحظة نومة ثم يقظة، ان اردت هذه الموتة فعليك بتناول بنج المعرفة والقرب والنوم على عتبة الحق عز وجل حتى تأخذك يد الرحمة والمنة فتحييك حياة ابدية"[3].

ويرى الكيلاني انه من طلب العلم لغير الله عز وجل فقد اشرك وقد سئل عن قول بعض العلماء "تعلمنا العلم لغير الله فأبى ان يكون الا لله فقال: "هذا القول ثبور في حق اولياء الله لان التعلم لغير الله شرك وتحمله على وجه اخر ان يكون يريد به الاخرة وهو نقص ايضاً فلا يزالوا يعملون به حتى اتى بهم إلى الله عز وجل وقربه"[4] ان طلب العلم لغير وجه الله امر خطير وكبير خاصة إذا كان العلم دينياً او من العلوم الشرعية وكثيراً مانرى بين بعض العلماء ذلك التعصب المقيت للاراء والاجتهادات، او ان البعض منهم يطلب المجد والشهرة والمال والمكانة الاجتماعية ويبالغ في ذلك وهو بلا شك تقديس وعبادة للنفس البشرية،

---

(1) المصدر نفسه، 233.

(2) المصدر نفسه، 184.

(3) المصدر نفسه، 144؛ الكيلاني، الدرر السنية، 25.

(4) الكيلاني، الفتح الرباني، 276.

اما إذا كان العلم يطلب به الآخرة فهو ايضاً نقص كما اوضح ذلك الامام الكيلاني، وفي اعتقادنا ان ذلك يشمل – وهو بلا شك اعتقاد الكيلاني ايضاً – العلوم الدينية والعلوم الاخرى التطبيقية والعقلية فهي من الضروري ان تكون خالصة لوجه الله ويراد بها منفعة الناس والمجتمع الانساني وليس لأي غرض دنيوي آخر فذلك هو وضع الشيء في موضعه الصحيح.

وخير شاهد على ما نقول الحضارة الغربية التي تطلب العلم من اجل الحياة فقط وهاهي تنتكس انتكاسة اخلاقية وتقيم حروباً عالمية وتستعبد الشعوب فهي قوة بلا رحمة وتكنولوجيا بلا اخلاق.

ونختم بحثنا بما ختم به الكيلاني حياته وهو في مرضه الذي توفي فيه وينصح ابنه عبد الوهاب بما اقام عليه حياته وبما اتخذه دستوراً ومنهجاً له وهو التوحيد، فيقول: "عليك بتقوى الله وطاعته ولا تخف احداً ولا ترجه وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه ولاتثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد الا عليه سبحانه، التوحيد التوحيد التوحيد، وجماع الكل التوحيد"[1].

وفي الختام فأني ادعو الباحثين وأولئك الذين ينعتون الصوفية بالشرك والوثنية وما إلى ذلك ان يتأملوا في ما قاله الشيخ الكيلاني وهو من اكبر اعلام التصوف الإسلامي وليحكموا بعد ذلك، أَلِمثل هؤلاء يقال عنهم مشركون ومبتدعون؟!.

ان الباحث المنصف لا يستطيع الا ان يجزم بعلو مكانة هؤلاء القوم بغض النظر عما يعتري هذا الطريق من اخطاء وشطحات او من وجود بعض المتصوفة الجهلة الذين لا يمكن ان يحسبوا على حساب التصوف الحقيقي الاصيل، علماً ان كل انسان يؤخذ منه ويرد عليه الا سيدنا محمد (ﷺ).

---

(1) المصدر نفسه، 287؛ الكيلاني، عبد القادر، وصايا الشيخ عبد القادر الكيلاني، وضع جميل ابراهيم حبيب، ط1 (بغداد، 1988) مطبعة الاشعاع، 49.

Monotheism in Al-Imam Al-Kelany Thought (471-561A.H. / 1078-1166A.D.)

Dr. Abdul-Qadir Ahmed *

Abstract

This research deals with monotheism doctrine as viewed by Al-Imam Al-Kelany. Monotheism to him is not just a word which compares to the singleness of ALLAH (The Almighty). Yet it is rather a comprehensive monotheism that contains all the aspects of life, social, economic, religious and scientific. It is a practical approach of Allah teachings to liberate human beings from all slavery and polytheism. The Shaik has fought with monotheism belief all kinds of polytheism and infidelities idolater that has been spread in society like flames in crashes. These acts made the society turning to be an empty society without life or soul, so the monotheism has weekend and so does the loyalty in actions, worship, intends and directions. There are some who worship rulers, powerful men, rich people as they think they give them money and there are some others who worship life, money, glory, fame and social position. Similarly, there are some people who are self-denying, ignorant dissimulate people, the Shaik tells them that most of them worship created figures. There are who prefer worshiping money, son and life on worshiping Allah and his Prophet (PBUH). Some people complain to other than Allah

* Dept. of History/ College of Arts/ University of Mosul.

when the fate and misfortune are befalling on him. Some are dissimulating people in their work and worshipness. Likewise, some worship his desire and passions, and seek knowledge for other than Allah but for money or fame. All those who approach divinity other than Allah makes them polytheist in their acts or sayings.

That's how the Shaik Al-Kelany fought those gods and masters and waked up human being from its sleep and brought them back to monotheism belief and its pureness. He toke them out from darkness to brightness.